# الأسس العامة للتوازن البيئي في الإسلام

دكتور/ محمد عبد الفتاح القصاص(*)

الحمد لله الذي علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد.

البيئة هي الحيز الذي يعيش فيه الكائن الحي، في هذا الحيز قوى وطاقة، كقوة الرياح وقوة الجاذبية الأرضية وطاقة الشمس، وفيه مواد كالأرض وما فيها، والمياه وغازات الهواء، وفيه أنماط الحياة النباتية والحيوانية، بعضها ظاهر بين وبعضها دقيق لا تراه العين، يجد الكائن الحي في حيز وما يزخر به، زاده ومأواه، الحيوان العاشب يأكل ما تيسر من نمو النبات، والحيوان اللاحم يفترس ما تيسر من الحيوان، كل ذلك في إطار توازن بيئي، وكل شيء بقدر ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(1)، لكن الله ميز الإنسان بقدرات العقل والعمل، وهي قدرات أذنت له أن يغير عناصر البيئة إلى ما يبتغيه، فهو لا يأكل النبات كما يفعل الحيوان العاشب إنما يعالجه بالطهي والخلط وكذلك يفعل باللحم، وأن يغير الغطاء النباتي الفطري إلى مايبتغيه من حقول يزرعها أو مراع لماشيته وأن يضبط ماء النهر الجاري، لخزنة إلى وقت حاجته أو ليروي به حقوله، وأن يحفر الأرض ويحصل على خاماتها من البترول وغيره، ويظل يغير فيها لتصبح صالحة للوقود أو معادن من حديد وفضه وغيرها، وأن يبني فوق هذا الحيز مستقرات سكنه التي تري

---

(*) الأستاذ بكلية العلوم جامعة القاهرة وخبير البيئة العالمي

(1) سورة القمر : الآية ٤٩.

في القرى والمدن ومصانع تحول الخامات إلى سلع تفي حاجاته إلى غير ذلك من نواتج العمل الإنساني وجهده.

أي أن بيئة الإنسان هي الحيز الزاخر بالعناصر التي يمولها بعمله المنظم إلى ثروات. يقول أحد علماء الاقتصاد: "الثروة لا تكون، الثروة تتكون"، أي أن البيئة ليس فيها ثروات، البيئة فيها عناصر خام من نبات وحيوان وأرض تتكون بفعل الإنسان، البيئة هي خزانة الموارد الطبيعية، هذا هو الوجه الأول للبيئة، البيئة هي الحيز الذي يمارس فيه الإنسان حياته ونشاطه. إذا رشد الإنسان فهم أن البيئة التي يعيش فيها جزء من نظام بيئي واسع هو المحيط الحيوي، والمحيط هو الحيز من كوكب الأرض وغلافها الجوي الذي تكون فيه الحياة، هذا المحيط الحيوي تحكمه نواميس غاية في الدقة والاتزان، وهذه النواميس جزء من القوانين السرمدية التي تضبط حركة الكون جميعاً، وتجاوز هذه النواميس في دقتها وتوازنها هو الفساد الذي حذرنا منه القرآن في العديد من آياته ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[1] ﴿وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2] ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[3]، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة : الآية ٦٠.

(٢) سورة هود : الآية ٨٥.

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٠٥.

(٤) سورة الروم : الآية ٤١.

هذه الآيات ترينا أوجه البيئة الاثنين: الفساد بمعني التلوث، والفساد بمعني تدمير القوي الإنتاجية على الأرض، الفساد الذي تشير إليه الآيات القرآنية الكريمة يجمع بين الوجهين اللذين تشير إليهما علوم البيئة الحديثة، وهما: فساد البيئة التي يعيش فيها الإنسان، أي التلوث، وفساد الموارد البيئية التي يعتمد عليها الإنسان. ويؤذن لي أن أشير إلى واحدة من هذه الآيات الكريمة وتسلسل عناصر رسالتها:

١-ظهر الفساد في البر والبحر، أي ظهر التدهور البيئي في المحيط الحيوي بقطاعيه اليابس والماء.

٢- بما كسبت أيدي الناس، أي نتيجة عمل الإنسان غير الرشيد الذي لم يراع قواعد التوازن البيئي.

٣- ليذيقهم بعض الذي عملوا، أي يصيبهم بعض الضرر، فساد البيئة بالتلوث الذي يضر بصحبتهم وفساد الموارد الطبيعية الذي ينقص من معاشهم.

٤- لعلهم يرجعون، أي يعودوا إلى رشدهم فيصلحوا الذي أفسدوه، ويقلعوا عن السلوك غير الرشيد الذي أفسدوا به هذا. هذه هي المسألة الأولي.

**المسألة الثانية:** الأمانة التي حملها الإنسان، والخلافة التي كرم الله الإنسان بها. والمسئولية التي هي جزء من فطرة الإنسان، هي في جملتها صورة التوازن البيئي في جملته على الأرض، ويؤذن لي أن أشير إلى طرف من قصة سيدنا نوح عليه السلام ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[1].

(١) سورة هود : الآية ٤٠.

١–كان فلك نوح هو الوسيلة الوحيدة للنجاة، أي البقاء، والبقاء هو حفظ النوع.

٢–أمر الله نوحاً أن يحمل معه الكائنات الحية الأخري التي خلقها الله، وجعلها من عناصر المحيط الحيوي، وأمره أن يحمل من كل نوع زوجين اثنين، وهي الوحدة القادرة على حفظ النوع وصونه وتحقيق بقاءه.

القرآن الكريم أوجز في إشارته إلى زوجين اثنين، التوراة فصلت وذكرت أن أمر الله تضمن سبعة أزواج من كائنات بعينها وثلاثة أزواج من كائنات أخري وهكذا. ولكن المقصود في الحالين هو العدد من الأفراد والقادر على حفظ النوع.

٣–أمر الله نوحاً من بعد أن يحمل معه أهله، أي عناصر الجنس البشري التي ستحفظ نوعه وتحقق بقاءه، نجاة نوح وحده لا تعني بقاء النوع.

يعني هذا أن ناموس المحيط الحيوي الذي وضعه خالقه هو أن للكائنات جميعاً ومنها الإنسان حق البقاء، لأن الجميع شركاء في المحيط الحيوي الذي شاءت إرادة الله أن يكون مهاداً للحياة، لأن الله لم يخلق الكائنات عبثاً بلا غاية.

والواقع أن لكل كائن من الميكروب الدقيق إلى الحيوان الكبير دور في حفظ توازن الحياة، يعني أن نوحاً قائد الفلك هو المسئول عن سلامة الكائنات جميعاً، لا فرق بين نوع ونوع، وأنه المسئول عن إتاحة فرص البقاء. هذه هي الأمانة التي حملها، والخلافة التي كرمه الله بها.

فلك نوح هو رمز له شبيه بالحاضر، إذ عندما صعد نفر من الناس إلى الفضاء بسلطان ما حملهم من صواريخ، نظروا من عل إلى كوكب الأرض،

فرأوا سفينة سابحة في الفضاء، وعلموا أنها السفينة الوحيدة التي تحمل الحياة بكل أنواعها، وأن الكواكب الأخرى لا يحصى عددها إلا الله تبدو خاوية. الكرة الأرضية هي الفلك ونوحها هو الإنسان المسئول عن حسن إدارتها بأن يحفظ توازنها ونواميس النظم البيئية، يحقق للأنواع جميعا البقاء، يحمي البيئة مما يلوثها ويفسد صحتها، يأخذ من مواردها ما يكفي حاجته المشروعة ولا يستنزف مواردها بالإسراف الذي نهي عنه الإسلام. هذه هي مسئولية الإنسان، الجنس البشري، وهي مسئولية حمل الأمانة، والاستخلاف هو تكريم الله للإنسان.

**القضية الثالثة:** من القضايا البيئية التي شغل العالم بها هي صور التنوع الحياتي، قضية وضعت لها اتفاقية دولية في عام ١٩٩٢، واستقبلت دول العالم ومنها مصر بإجراءات التوقيع والتصديق عام ١٩٩٤، وأصبحت معاهدة دولية في حيز التنفيذ، هذه الاتفاقية تدعو إلى صون الأنواع النباتية والحيوانية جميعا. فماذا قال الإسلام منذ أربعة عشر قرن؟

١-إن لهذه الأنواع حق البقاء والحياة، وهي شركاء الإنسان في المحيط الحيوي، ومن مسئوليات الإنسان صون حياتها على نحو ما أشارت إليه قصة سيدنا نوح عليه السلام وفلكه.

٢- إن هذه الأنواع وصفاء للإنسان في عبادة الله ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾(١).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ

(١) سورة الأنعام : الآية ٣٨.

قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[1].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾[2].

فكل هذه المخلوقات تسبح، وربما لو أمتد بنا العمر وأتيحت الفرصة لنا حديث في معني تسبيح هذه الكائنات.

في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام الكثير من الحث على الرفق بالحيوان، وحديثه الشريف في المرأة التي عذبت في هرة، وعن الشخص الذي سقي كلباً يلهث من العطش، ونهى عليه السلام من اتخذ شيئاً فيه روح غرضاً، أي يجعل منه هدفاً يتلهى ويلعب بالتصويب عليه، كذلك نهي النبي الكريم عن استيقاد النار في موضع قرية النمل، وقد روي البخاري ما معناه أن الرسول عليه السلام ذكر أن نملة قرصت نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل أن تحرق، فأوحي الله إليه أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح، والرسول عليه الصلاة والسلام نهي عن قطع شجرة في الفلاة يستظل بها الإنسان والحيوان. نعم إن الإنسان يقوم بالصيد، لكن بقصد الطعام والإفادة منه ودون تجاوز لحدود الحاجة المشروعة، ودون أن يكون القصد هو اللهو والتقتيل. هذه مسألة هامة لأن علوم البيئة وصون الحياة البرية تدعو إلى الإدارة السليمة بمجموعات الحيوان البري، ويكون الصيد والقنص المنضبط من وسائل صون الحيوان وتحقيق التوازن بين أعدائه وأعداء شركائه في الحيز، وما يتاح من كلأ ومرعي، الصيد بقدر مباح والإسراف في الصيد

(١) سورة النور : الآية ٤١.

(٢) سورة الحج : الآية ١٨.

منكر.

من الوسائل المعروفة لصون الحياة البرية إنشاء المحميات الطبيعية، وقد صدر في مصر القانون رقم ١٠٢ لسنة ١٩٨٣ يخول للسيد رئيس مجلس الوزراء تخصيص مناطق لحماية البيئة بما فيها من ظواهر طبيعية ومن نبات ومن حيوان، وتوجد في مصر حالياً حوالي ١٨ محمية طبيعية تمثل الأنماط البيئية في ربوع مصر جميعاً، وكذلك تفعل دول كثيرة وخاصة بعد إقرار الاتفاقية الدولية لصون التنوع في الحياة. وقد سبق التراث العربي في هذا المضمار، وأقره الإسلام وزكاه "هذا هو نظام الحمي، وأكرم الأحمية الحرمان"، فالحرم حول مكة أمان للناس والحيوان والنبات، وقد روي البخاري أن رسول الله عليه السلام قال يوم فتح مكة: "فهو حرام لحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكة، ولا ينفر صيده" وحرم الرسول عليه السلام المدينة المنورة إذ قال: "إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة ... لايقطع عضاها ولا يصاد صيدها".

أما الحمي فهي مناطق ينظم استغلال مواردها، كأن يمنع فيها قطع الشجر أو أن يخصص مرعاها لدواب الجيش في زمن السلم أو يخصص لدواب الحج أو أن يخصص لتربية النمل.

الغرض من الحمي هو صون النظام البيئي كله وحمايته من الاستغلال غير المنظم الذي يؤدي إلى التدهور ليكون كل شئ بقدر. هذه هي حماية البيئة والتنوع الإحيائي.

**المسألة الرابعة:** من المقاصد التي شاع الاهتمام بها، وخاصة فيما بعد انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة.

والتنمية، قمة الأرض في سنة ١٩٩٢، مقصد التنمية المتواصلة أو المستدامة- حسب الترجمة- هي تنمية الموارد الطبيعية في المحيط الحيوي بحيث تفي بالحاجات المشروعة للناس في حاضرهم دون الإخلال بحق الأجيال التالية من الأبناء والأحفاد في أن يجدوا ما يفي حاجتهم.

يقوم هذا المقصد على أسس، منها: أن تكون تنمية الموارد في إطار زمني ممتد، ألا يؤدي استغلال الموارد إلى استنزافها ونضوب معينها، ألا يؤدي الاستغلال إلى إفساد البيئة. التنمية المتواصلة أو المستدامة ذات مضمون أخلاقي، وهي مسئولية الجيل الحاضر تجاه الأجيال القادمة، وكل مضمون أخلاقي ينبغي أن يتأسس على قواعد الدين، وقد وضع الإسلام هذه القواعد مجملة في ثلاثة أمور.

١ -النهي عن الإسراف ﴿يَابَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(١) ﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾(٢).

نهي الرسول عليه السلام عن الإسراف في استعمال الماء حتى لو كان ماء الوضوء، وحتي لو كان المرء على نهر جار.

٢- الحث على تعمير الأرض وتنمية الموارد وإحياء الأرض الموات ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(٣) ويقول عليه الصلاة والسلام: "إن الدنيا... والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون" ويقول عليه الصلاة

(١) سورة الأعراف : الآية ٣١.

(٢) سورة الشعراء : الآية ١٥١، ١٥٢.

(٣) سورة هود : الآية ٦١.

والسلام: "ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة".

٣- النهي عن إفساد البيئة وإفسادها وإتلافها، وقد تحدثنا عنها، ولعله يؤذن لي أن أذكر أن مؤلفاً بريطانياً كتب كتاباً عن موارد المياه، وجعل في مقدمته فصلاً عن التنمية المتواصلة أو المستدامة، ذكر فيها أن والده حدثه أنه زار مصر والتقي بالإمام محمد عبده وسمع منه أن من توجيهات الإسلام أن "اعمل لأخرتك كأنك تموت غداً واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً" وقال: إن في الجملة الثانية جوهر فكرة التنمية المتواصلة، وقد سبق بها المسلمون العالم بأكثر من عشرة قرون.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته